# إصلاح التعليم عند الشيخ ابن باديس -رحمه الله-

د. مزياني محمد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**مقدمة:**

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، وبشَّر العلماء بالرِّفعة في الدرجات فقال عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾[1].

وقد أخبر الله تعالى أن العلماء يخشونه فقال:﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨﴾.[2] وفيه إشارة إلى أن العلم النافع يورث صاحبه خشية الله.

---

[1] المجادلة: 11

[2] فاطر:28

وأوجب صلى الله عليه وسلم العلم على كل مسلم فقال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[1] . ويدخل في عموم هذا الخطاب المسلمات لأنهن شقائق الرجال.

أما بعد؛

فمن المعلوم فطريا أن الإصلاح هي الغاية المنشودة عند الأمم والجماعات، إلا أن نظرة المصلحين تختلف في الجوانب التي يجب مراعاتها عند التخطيط للإصلاح بغية النهوض بالشعوب من الانحطاط والتدهور الذي يطغى على حياتها اليومية، فنجد مثلا في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ميلادي يركِّز بعض المفكرين على الإصلاح السياسي، والبعض الآخر على الإصلاح الاجتماعي، وآخرون على الإصلاح الاقتصادي، بينما يرى فريق من العلماء المسلمين المعاصرين أن سبب تدهور المسلمين راجع إلى ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم، الذي يُعتبر حقيقة متكاملة تشمل الناحية الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية[2] .

لكن بالنظر إلى أقوال المصلحين المسلمين، وأعمالهم التي باشروها في حياتهم اليومية، نجد التباين بينهم في طرق الإصلاح التي كانت محل اهتمامهم، فنجد محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة 1791م ركَّز على الجانب العقدي، والأمير عبد القادر المتوفَّى سنة 1883م ركَّز على الجانب الجهادي، وجمال الدين الأفغاني المتوفَّى سنة 1897م اهتم بالجانب السياسي، ومحمد عبده المتوفَّى سنة 1905م اهتم بالجانب

[1] رواه ابن ماجة في سننه رقم: 224.

[2] انظر: عمار طالبي، **مقدمة كتاب آثار ابن باديس**، ط1، 1968م، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ج1 ص100.

التربوي التعليمي، وكذلك ابن باديس المتوفَّى سنة 1940م اهتم بالجانب التربوي التعليمي، كما سيأتي بيانه.

ولعل السبب في هذا التباين يرجع إلى الظروف الداخلية والخارجية التي عايشها أولئك المصلحون، فمحمد عبد الوهاب وجد سكان نجد غارقون في شِرك العبادة فاهتم بالجانب العقدي إذ هو أساس حصول الأمن والرِّزق، والأمير عبد القادر وجد الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي فاهتم بالجانب الجهادي لتحرير البلاد من الاستعمار الذي استولى على مقومات البلاد، وأهمل الشعب الجزائري مما أدى به إلى التدهور والانحطاط في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية، وابن باديس رأى أن التربية والتعليم هي الأساس في التقدم والرقي فأعطاها الحظ الأوفر من حياته حيث قال: "ولا أدل على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها، ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم، التعليم الذي ينشر فيها الحياة، ويبعثها على العمل، ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني، ويظهر كيانها بين الأمم"[1].

وبيَّن سبب اعتنائه بالتعليم بقوله: "إن لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر ولا أحد ينكر ما لها من الأيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض وجميع وجوه الرقي الاقتصادي، غير أنها ويا للأسف ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي، مع أن الذي يناسب سمعة فرنسا ومبادئها، ويصدق ما ينادي به

[1] **مجلة الشهاب** الجزء الأول، المجلد الثاني عشر، محرم 1355هـ، أبريل 1936م، ص6.

خطباؤها ويكون أجمع للقلوب عليها هو أن تعنى بالعباد كما تعنى بالبلاد، إننا نسعى بكل جهدنا لتحقيق هاته الأمنية التي هي حقنا وفيها سعادة الجميع"[1].

ومن خلال ما سطَّره الشيخ ببنانه، أو تفوّه به في محاضراته وكَتَبه طلبته، يظهر جليا أن اهتمامه انصب على إصلاح التعليم الديني بالدرجة الأولى، مع إشارات متفرقة فيها الترغيب في العلوم العصرية التي تخدم البشرية وترقى بها في سلَّم الحضارات بين الأمم.

ذلك أن إصلاح التعليم الديني هو دعوة إلى التمسك بالإسلام الحقيقي الصافي من كل الشوائب، وشموليته تقتضي تعمير الأرض بما يعود صلاحه ونفعه على العباد والبلاد، وهذا ما قرّره الشيخ ابن باديس حيث قال: "المسلم هو المتديِّن بالإسلام، والإسلام عقائد وأعمال وأخلاق، بها السعادة في الدارين، أما تحصيلها لسعادة الأخرى فما بها على أحد من خَفاء، وأما تحصيلها لسعادة الدنيا فقد صار في هذه العصور المتأخرة عند كثير من الناس مما يخفى، مع أن دعوته إلى تحصيل السعادة والسيادة في الدنيا في آيات القرآن العظيم كثيرة جداً[2]، فدعا إلى العلم بمثل قوله تعالى: ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾[3]، وللفلاحة بمثل قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 279/3.

[2] المرجع نفسه 466/3.

[3] طه:114

صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾﴾[1]، وإلى الصناعة وإتقانها بمثل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾﴾[2] وإلى التجارة بمثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[3].

ويمكن إبراز اهتمام الشيخ بالإصلاح التعليمي ضمن المباحث التالية:

**المبحث الأول**: مفهوم الإصلاح وميادينه وثمرته

يقول ابن باديس: "صلاح الشيء: هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال، وفساده: هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان، اعتبر هذا في البدن، فإنَّ له حالتين: حالة صحة وحالة مرض. والأولى: هي حالة صحته باعتدال مزاجه، فتقوم أعضاؤه بوظائفها وينهض هو بأعماله. والثانية: هي حالة فساده باختلال مزاجه فتتعطل أعضاؤه أو تضعف كلها أو بعضها عن القيام بوظائفه، ويقعد هو أو يثقل عن أعماله، هذا الذي تجده في البدن هو نفسه تجده في النفس، فلها صحة ولها مرض، حالة صلاح وحالة فساد.

[1] هود: 61

[2] سبأ: 11

[3] الجمعة: 10

والإصلاح هو إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من فساد، والإفساد هو إخراج الشيء عن حالة اعتداله بإحداث اختلال فيه، فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة، وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب، هكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد في كثير من الأحوال"[1] .

وهذا المعنى المذكور هنا بيَّنه في الدَّعوة الإصلاحية التي تسعى الجمعية إلى تحقيقها فقال: "أيها الإخوة هذا العالم عالم الكون والفساد، فكل كائن فيه هو معرض للخروج عن حالته الأصلية واختلال أصل نظامه، وتلك هي حالة الفساد، وإرجاعه إلى حالته الأصلية هو الإصلاح فالمسلمون اليوم بما دانوا به من عقائد الإسلام وفضائله وأعماله ونظمه على خير، لكنهم خرجوا عن أكثر ما دانوا به فكانوا بذلك الخروج في حالة فساد، فلا بد من إصلاحهم بإرجاعهم إلى ما خرجوا عنه، والجمعية تدعو إلى هذا الإصلاح فدعوتها إصلاحية محضة، وقد صرح بهذه الدعوة الفصل الثامن من قانونها"[2] .

وأوضح الثمرة من هذه الدعوة بقوله: "هي رجوع المسلمين إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات والتآلف والتعامل

---

[1] **تفسير ابن باديس**، اعتنى به أبو عبد الرحمن محمود، الناشر: دار الرشد للكتاب والقرآن الكريم الجزائر، ط2009/1م، ج1 ص206-207.

[2] **مجلة الشهاب**، الجزء الثامن، المجلد الثاني عشر، شعبان 1355هـ، نوفمبر 1936م، ص354.

والتعاون، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله"[1].

وبيَّن الغاية الإصلاحية بقوله: "القصد من هذه الجمعية هو محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، فكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضيع عليهم أموالهم فهو من الآفات؛ ولهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وحاربت كل واقف في طريق التعلم والتعليم أي نوع من أنواع التعلم والتعليم، وحاربت الزردات والوعدات والفدوات، وبدعة المآتم ومنكرات الولائم، وكل وجوه السرف، وأكل أموال الناس بالباطل، وحاربت أَثَرة ذوي المال بما جعلهم الله مستخلفين فيه، وقعودهم عن تأسيس المشاريع الاقتصادية وقبض أيديهم عن المشاريع العلمية والخيرية لأن ذلك من أسباب البطالة والفجور"[2].

وأوضح ثمرة هذه الغاية بقوله: "هي سلامة المسلمين من تلك الآفات وأمثالها، حتى يمكنهم أن يترقوا في جميع نواحي الحياة إلى أقصى ما تترقى إليه الأمم، فيكونوا محترمين من أنفسهم ومن غيرهم، يفيدون ويستفيدون، ويعرفون كيف يسوسون وكيف يساسون، فتربح بهم الإنسانية عضوا من خير من عرفت من أعضائها"[3].

فإذا كان إصلاح النفس بالابتعاد عن المعاصي وملازمة التوبة بالنظر إلى فرد من أفراد المجتمع، فإن صلاح المجتمع ثمرة من ثمراته، وهذا الصلاح بمعناه العام يشمل العقيدة

[1] المصدر السابق، نفس الصفحة.

[2] المصدر السابق ص353-354.

[3] المصدر السابق ص354.

والأخلاق والعلم والإرادة، يقول الشيخ ابن باديس: "برزت جريدة المنتقد تحمل فكرة الإصلاح الديني بتنزيه الإسلام عما أحدثه فيه المبتدعون وحرَّفه الجاهلون، وبيانه كما جاء في القرآن العظيم والسنة المطهرة وعمل به السلف الصالحون، معلنة أن المسلمين بذلك وحدة تصفو عقائدهم وتزكو نفوسهم وتستقيم أعمالهم، وينبعثون عن قوة وبصيرة في الأخذ بأسباب الحياة الراقية والمدنية الطاهرة، مشاركين لأمم الدنيا في خدمة الإنسانية وترقية وتوسيع العمران، سالمين مما تشكو منه أمم الحضارة التي غلبت عليها المادية والأنانية، وتفشت فيها أمراض ليست من التمدن الحقيقي في كثير ولا قليل"[1] .

يرى الشيخ أن الإصلاح الديني الذي يُعنى بتصفية الإسلام عن المحدثات العقدية والعملية، وتربية الأفراد على الأخلاق والآداب الإسلامية من أكبر المحفزات على الأخذ بأسباب الحياة الراقية، فينتفعون وينفعون غيرهم.

ثم يقرر الشيخ أن صلاح الفرد هو صلاح للمجتمع، فلا يمكننا تصور الصلاح العام للمجتمع ما لم يكن أساسه صلاح أفراده، يقول رحمه الله: "فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق، والخير والعدل والإحسان، إلا وهو راجع عليها بالصلاح، وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء، إلا وهو عائد عليها بالفساد، فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل..."[2].

---

[1] **مجلة الشهاب**، الجزء الأول، المجلد 11، محرم 1354هـ، أبريل 1935م، ص5.

[2] **تفسير ابن باديس**، مرجع سابق 1/208-209.

وما قاله الشيخ هنا هو مصداق قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.[1]

وبيَّن الشيخ في موضع آخر أن هذا الإصلاح الَّذي ينتهجه يشترك في الانتفاع به جميع البشر، فقال: "وليس ما ندعو إليه ونسير على مباديه من الإصلاح بالأمر يخص المسلم الجزائري ولا ينتفع به سواه، كلا، فإن صحة العقيدة، واستنارة الفكر، وطهارة النفس، وكمال الخلق، واستقامة العمل، -وهذا هو الإصلاح كله- مما يشترك في الانتفاع به جميع المسلمين، بل جميع بني الإنسان..."[2]

**المبحث الثاني: إصلاح التعليم طرقه ووسائله**

لقد اهتم الشيخ ابن باديس –رحمه الله- بالتعليم اهتماما بالغا، فصرف جل أوقاته في التعليم وتكوين المعلمين الَّذين هم عماد الأمة بعد الله في تربية الأجيال تربية علمية، فأعاد للمسجد دوره التربوي التعليمي، وأنشأ المعاهد والمدارس، وعيَّن العلماء والدعاة الأكفاء في ميادين التعليم، واتصل بالمحسنين لتغطية نفقة المعوزين من الطلبة، ورغَّبهم في بناء المساجد والمعاهد التعليمية، فكانت الدروس العلمية والمحاضرات تُلقى في معظم القطر الجزائري في المساجد والمعاهد والنوادي، وبقي الشيخ ملازما المنهج التربوي التعليمي ربع قرن من الزمان، فتخرَّج على يديه جيل من المتعلمين يحملون في

---

[1] الرعد: 11

[2] **مجلة الشهاب**، الجزء الأول، المجلد الثاني عشر، محرم 1355هـ، أبريل 1936م، ص5.

نفوسهم همَّ الدعوة إلى الله على عِلم وبصيرة، وتذكير الشعب الجزائري بشخصيته العربية الإسلامية، الخالية من المحدثات، وتحفيزه للأخذ بأسباب الحياة الراقية ليجد مكانه ضمن الأمم المعاصرة.

هذه هي الخطوط العريضة في مجال الإصلاح التعليمي التي أوْلاها الشيخ عناية خاصة طوال حياته، وبتتبع كتاباته وأقواله المدونة يمكن استخلاص أهم جوانب الإصلاح التعليمي في النقاط التالية:

## أولا: صلاح التعليم أساس الإصلاح

هذا عنوان مقال كتبه الشيخ ابن باديس في مجلة الشهاب، وركَّز فيه على إصلاح التعليم الديني ومما ورد في كلامه: "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب إذا صلح صلح الجسد كلّه، وإذا فسد فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته وما يستقبل من علمه لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم، ونعني بالتعليم التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه، ولن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته فيما كان يعلم صلى الله عليه

وآله وسلم وفي صورة تعليمه، فقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم[1] أنّه قال: "إنّما بعثت معلما"، فماذا كان يعلم وكيف كان يعلم"[2].

ومن أهم الأمور التي ذكرها في إصلاح التعليم الديني ما يلي:

**1.** أن التعليم الديني يُستمد من القرآن الكريم وسنته صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، وما كان عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وأهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، ثم ضرب الأمثلة على ذلك من موطأ الإمام مالك وغيره.

**2** أن الفروع الفقهية تُربط بأصولها ومعرفة مآخذها وعللها، واستشهد بكلام ابن عبد البر المتوفَّى سنة 463هـ، وابن العربي المتوفَّى سنة 543هـ[3].

والمقصود بالأصول في كلامه الكتاب والسنة وأقوال السلف، أي ربط الفروع بأدلتها الأصلية، ومعرفة علل الفروع التي تُكسب الفقيه ملكة فقهية تُمكِّنه من إلحاق الفروع غير المنصوص عليها بالفروع المنصوص عليها.

يقول الشيخ ابن باديس: "لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام 32 (أي 1332هـ، 1913م) وعزمنا على القيام بالتدريس، أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة وأدبها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا، ورأينا لزوم تقسيم المعلمين إلى طبقات، واخترنا للطلبة الصغرى

---

[1] لم يروه مسلم وإنما رواه ابن ماجه رقم 229 بسند ضعيف، وصححه الألباني لوجود شاهد للحديث في السلسلة الصحيحة رقم 3593.

[2] د عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق، 217/3.

[3] المرجع نفسه 220/3-222.

منهم بعض الكتب الابتدائية التي وضعتها وزارة المعارف المصرية، وأحدثنا تغييرا في أساليب التعليم، وأخذنا نحث على تعلم جميع العلوم باللسان العربي والفرنسي، ونحبب الناس في فهم القرآن، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، ونرغبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين"[1].

وما حرص عليه الشيخ ابن باديس من إصلاح التعليم الديني والاعتناء بالعلوم العصرية من خلاله كتاباته وأقواله، جسَّده في واقعه العلمي، ويمكن إبرازه في جانبين: الأول: المواد المقررة على طلبة جمعية علماء المسلمين. والثاني: ورقة العمل التي بعث بها إلى جامع الزيتونة وفيها مقترحات إصلاح التعليم.

أما المواد المقررة في مدارس ومعاهد الجمعية فهي: القرآن وتفسيره، والحديث، والعقيدة، والفقه، والأصول، والمنطق، والجغرافيا، والأدب العربي، واللغة العربية بفنونها، والأخلاق، والحساب، والهندسة، وعلم الفلك، والتاريخ، وكان من عادة الشيخ ابن باديس أن يصدر في كل سنة تقريباً بياناً يبيِّن فيه المواد والكتب التي تدرس، فأصدر بيانا بتاريخ 2 رجب 1352هـ الموافق لـ 21 أكتوبر 1932م بيَّن فيه المنهاج الذي يشتمل عليه التفسير والتجويد والحديث والفقه والعقائد الدينية والأخلاق والآداب الإسلامية واللغة العربية بفنونها: نحو وصرف وبيان وأدب، والفنون العقلية من منطق وحساب وغيرهما، وورد في البيان أن الطلبة المحتاجين تعطى لهم إعانة من الخبز ويسكنون في بعض المساجد.

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 27/3.

وفي سنة 1355هـ - 1936م صدر بيان آخر يبيّن تطور التعليم بالجامع الأخضر، فبالنسبة لعدد الطلبة الذي كان في سنة 1933م 100 طالب، وفي سنة 1935م 200 طالب، وأصبح في سنة 1936م 300 طالب، بالإضافة إلى الذين سافروا إلى جامع الزيتونة لإتمام دراستهم ويبلغ عددهم نحو 300 طالب أيضاً، كما تطور المنهاج، فأصبح يشمل بالإضافة إلى ما سبق ذِكره، على الفرائض والجغرافيا والتاريخ والأصول والمواعظ، وبيَّن لنا فيه الكتب التي تدرس وهي: الموطأ، وأقرب المسالك، والرسالة، وابن عاشر، والمفتاح، والزنديوي، والتنقيح، والسُّلم، والمكودي، والقطر، والآجرومية، والزنجاني، واللامية، والسعد، والجوهر المكنون، ومن ديوان الحماسة، ومن ديوان المتنبي، والأمالي، ومن مقدمة ابن خلدون.

والشيء المهم في هذا الطور هو دراسة مقدمة ابن خلدون، والواقع أن هذه الكتب مقسمة على طبقات الطلبة ودرجاتهم الثقافية التي نص على أن عددها أربع طبقات، كما تعرض للقائمين بالتعليم وهم: الشيخ ابن باديس، والشيخ عبد المجيد حيرش، والشيخ حمزة بوكوشة، المتخرجان من جامع الزيتونة، وبعض العرفاء وكبار تلامذة الشيخ ابن باديس، أمثال الشيخ عمر دردور والشيخ بلقاسم الزغداني [1].

أما الورقة التي بعث بها إلى جامع الزيتونة بتونس، فقد تضمنت مقترحات في كيفية إصلاح التعليم، أنقلها بحرفها ونصها لما تضمنته من فوائد، وظهور نظرة الشيخ الشمولية للعلوم الشرعية خاصة والعلوم الأخرى عموما حيث يقول: "إن جامع الزيتونة كلية دينية، فلا يكون إصلاح التعليم فيه إلا على مراعاة هذا الوصف الذي

[1] مقدمة عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 1/116-117.

هو أساسه وغايته، والرِّجال الذين يتخرجون من هذا الجامع يقومون بخطط كلها دينية، وهم أصناف ثلاثة: رجال القضاء والفتوى، ورجال الإمامة والخطابة، ورجال التعليم، ولكلٍّ خطة من هذه الخطط وسائل خاصة لتحصيل الكفاءة فيها والاضطلاع بها، إن من المعلوم أن ما يحتاج إليه القاضي والمفتي من سعة الاطلاع على الأحكام، وتمام الخبرة بتطبيقها على النوازل، غير ما يحتاج إليه الإمام الخطيب من القدرة على إنشاء الخطب وحسن المعالجة بها لأمراض وقتها وقوة التأثير بها على سامعيها المعالجين بها، وغير ما يحتاج إليه المعلم من معرفة أساليب التفهيم، وفهم نفسية المتعلمين، وحسن التنزل لهم، والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجاتهم واستعدادهم.

فلهذا نرى أن أول عمل في الإصلاح هو تقسيم التعليم في الجامع إلى قسمين: قسم المشاركة وقسم التخصص.

فأما في قسم المشاركة فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات على طبقاتهم، ويحصل الفائزون في الامتحان بعد تمام مدة التعلم التي لا تقل عن ثماني سنوات على شهادة عالم مشارك، بدلا من لفظة (متطوع)، فإنه لفظ مات معناه، وذهبت قيمته بذهاب الوقت الذي وضع فيه والمناسبة التي اقتضته.

وأما قسم التخصص فيفرع إلى ثلاثة فروع: فرع للتخصص في القضاء والإفتاء، وفرع للتخصص في الخطابة، وفرع للتخصص في التعليم. وبعد تمام المدة التي لا تقل عن أربع سنوات في فرع القضاء والإفتاء، وعن سنتين في فرعي الخطابة والتعليم، ينال الفائزون في الامتحان شهادة التخصص بالعالية فيما فازوا فيه.

ثم إن المتعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلا بد أن يكون ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع الخطابة.[1]

هذا رأينا في مسألة التقسيم، وأما مسألة الفنون وكيفية تعليمها فنرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك على اللغة والنحو والصرف والبيان، بتطبيق قواعد هده الفنون على الكلام الفصيح لتحصيل الملكة، وأما قراءتها بلا تطبيق- كما الجاري به العمل اليوم- فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل، وعلى تاريخ الأدب العربي، وعلى تعلم الإنشاء، وعلى تعلم حسن الأداء في القراءة وإلقاء الكلام، وعلى العقائد، ويجب أن تؤخذ هي وأدلتها من آيات القرآن، فإنها وافية بذلك كله، وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها، والذهاب مع تلك الأدلة الجافة، فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وعلى الفقه ويجب أن يقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى بهم إلى ذِكر بعض أدلتها، وعلى أصول الفقه مسائل مجردة، ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية، لتحصل لهم من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم مَلكة النظر والاستدلال، وعلى التفسير ويكون بسرد تفسير الجلالين على المتعلم، وهو يبيِّن ما يحتاج للبيان، والمقصود من هذا أن يطلع المتعلم على التفسير بفهم المفردات وأصول المعاني بطريق الإجمال، وعلى الحديث بقراءة الأربعين وغيرها سردا على الطريقة المتقدمة في التفسير، وعلى دروس في التربية

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 3/180-183

الأخلاقية، يعتمد فيها على آيات وأحاديث وآثار السلف الصالح، وعلى التاريخ الإسلامي على وجه الاختصار، وعلى الحساب والجغرافية، بأقسامها، وعلى مبادئ الطبيعة والفلك والهندسة، وإذا لم يكن في الشيوخ المعممين من يقوم ببعض هذه العلوم، فلنأتي بأمثل إخواننا المطربشين من تونس أو من مصر إن اقتضى الحال ذلك.

وأما فرع القضاء والفتوى من قسم التخصص فيتوسع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، ويكون بداية المجتهد من الكتب التي يدرسونها، ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام، ويدرسون عِلم التوثيق، ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب، حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة.

وأما فرع الخطابة فيتوسم لهم في صناعة الإنشاء، والاطلاع على أنواع الخطب، ويدرسون آيات المواعظ والآداب وأحاديثهما، ويتوسعون في السيرة النبوية ونشرة الدعوة الإسلامية، ويُمَرنون على إلقاء الخطب الارتجالية.

وأما فرع التعليم فيتوسعون في العلوم التي يريدون التصدي لتعليمها، مع تمرينهم على التعليم بالفعل، ومدارستهم للكتب الموضوعة لفن التعليم.

هذه أصول ما نراه من كيفية الإصلاح بجامع الزيتونة المعمور، وهي وإن لم تكن وافية بالتفصيل فإنها كافية في مقام الأعمال، ولعل اللجنة الموقرة تعيرها التفاتا فتزنها بميزان العدل والإنصاف، فعساها واجدة فيها بعض ما يفيد" [1].

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 180/3-183.

هذه الخطة التي وضعها الشيخ في غاية الدقة، لا تصدر إلا عن عالم متضلع بالعلوم الشرعية، ومدرك للمقاصد التي يجب مراعاتها لإصلاح المجتمع العربي الإسلامي، وما يُلفت الانتباه في كلامه أمران:

أولهما: أنه جعل التعليم على مرحلتين أساسيتين؛ مرحلة الاشتراك أو المشاركة في العلوم، وهذا ما يعرف الآن في الدراسات الجامعية المعاصرة بالجذع المشترك، حيث يتلقى الطلبة في هذه المرحلة نفس المعارف العلمية، ومرحلة التخصص، حيث يكون في كل تخصص مواد لها علاقة بالتخصص، يتوسعون في دراستها.

الثاني: اقترح بعض المواد التي لها علاقة بالعلوم العصرية، كالحساب والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة.

**ثانيا: التنويه بشرف التعليم وفضل العلماء**

نوَّه الشيخ ابن باديس في مواضع كثيرة على أهمية العلم وفضل العلماء، وما ذاك إلا إشارة منه في الترغيب فيه، وشحذ أصحاب الهمم العالية إلى الاعتناء به، والبحث عن السُّبل الناجعة في توصيل العلم للأجيال الناشئة، فمما قاله في التنويه بالعلم: "لا حياه إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالماً إلا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلماً إلا من قد كان متعلماً، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعثه الله معلماً، كان أيضاً متعلماً، علَّمه الله بلسان جبريل، فكان متعلماً عن رب العالمين ثم كان معلِّماً للناس أجمعين" [1].

[1] **مجلة الشهاب**، الجزء الخامس، المجلد الحادي عشر، جمادى الأولى 1354هـ، أوت 1935م، ص276.

وقال أيضا: "يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم، وتوسع فيه وتكمل به، فلن يزال بحاجته إلى العلم ولن تزال أمامه فيما عَلِمه وعَلَّمه أشياء مجهولة يحتاج إليها، فعليه أبداً أن يتعلم وأن يطلب المزيد؛ ولذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الأعظم- أن يطلب من الله- وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم- أن يزيده علماً[1] فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[2]. وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾[3]. ما نصه: "تنويه وتأصيل: قد ابتدئ الحديث عن هذا الملك العظيم بذكر العِلم، وقدِّمت النعمة به على سائر النعم تنويها بشأن العلم، وتنبيها على أنَّه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأن الممالك إنما تبنى عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينظم به ويساس، وأن كل ما لم يُبن عليه فهو على شفا

[1] **مجلة الشهاب**، الجزء الخامس، المجلد الحادي عشر، جمادى الأولى 1354هـ، أوت 1935م، ص277.

[2] طه:114

[3] النمل:15

جرف هار، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي، وبه دفاعها، وأن كلَّ مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض" [1].

ثم أشار إلى أن قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[2] فيه ترغيب إلى طلب العلم، وحث لنا على التحلي بأسباب العظمة من القوة والعلم فقال: "يذكر الله تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم، وما مكَّنه منه من عظيم الأشياء، ترغيبا لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا، وتشويقا لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الأحياء، وبعثا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة، وحثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سَنن ملك النبوة، فقد كان سليمان –عليه السلام– نبيا، وما كان ملكه ذلك إلا بإذن الله ورضاه، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة، وأي قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين" [3].

**ثالثا: العناية بالعلوم العصرية**

الشيخ ابن باديس وإن كان اهتمامه بإصلاح التعليم الديني، إلا أنه أشار في مواطن كثيرة على ضرورة الاعتناء بالعلوم العصرية التي تخدم البشرية، بل صرّح أن

---

[1] **تفسير ابن باديس**، مرجع سابق 201/2.

[2] النمل:16

[3] **تفسير ابن باديس**، مرجع سابق 210/2.

إصلاح التعليم الديني يبعث على تحسين الأحوال الاقتصادية والعمرانية، ومما قاله في هذا الصدد ما يلي: "من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية، أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي، في بيان بديع جذاب يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه، وتبعث في البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول، وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم ولن نعز عزَّهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم"[1] .

وقال أيضا: "القرآن كلام الله ووحيه، ودليلها أنه حكيم فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا من عند الله في عقائده، ودلائلها وأحكامه وحكمها وآدابه وفوائدها، إلى ما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلاّ في هذا العصر الأخير، ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة، جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾[2]، ومنها مسألة حياة النبات التي جاءت في مثل قوله تعالى:

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 2/47-48.

[2] الذاريات:49

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾[1]، ومنها مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ۝٢٢﴾[2]، فهذه حقائق علمية كونية أجمع علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة ولم تكن معلومة عند أحد من الخَلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها، وكفى بهذا القل من الكثر دليلاً على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند الله الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها"[3] .

## رابعا: أصول عامة في التربية

ذكر الشيخ ابن باديس الأمور التي ينبغي أن يراعيها المعلم والمرشد والمصلح عند تعليم الناس، والمقصود من ذلك إصلاح التعليم باستعمال المصلحين الأساليب التي تجعل المتعلِّمين يُذعنون للحق، واستنبط تلك الأصول التربوية والآداب من قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعت الرَّجلَ يقول هلك الناس فهو أهلكُهم"[4] .

ويمكن إجمالها واختصارها فيما يلي:

---

[1] الأنبياء:30

[2] الحجر:22

[3] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 2/65-66.

[4] رواه مسلم في صحيحه رقم 6850.

**1.** على المصلحين أن ينظروا إلى من يرشدونهم بعين الشفقة والحنان، لأن ذلك يدفعه إلى البحث عن الأدواء وعلاجها، وإذا لمس الناس ذلك الخُلُق النبيل منهم حملهم ذلك على الانقياد لهم، وحَسُن ظنهم في حصول الخير على أيديهم.

**2.** على المصلحين عند معاينة أمراض الأمة التي سبَّبت لهم التدهور والانحطاط أن يبيِّنوا لهم الحلول النافعة بعبارات رقيقة وجذابة، والبُعد عن الألفاظ المثبِّطة والمنفِّرة، فيكون ذلك دافعا لهم إلى الإنابة والرُّجوع إلى الحق[1].

**3.** قال الشيخ ابن باديس: "هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على عِلم النفس البشرية، فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل، وترجع إلى أحطِّ دركات السقوط، فجاء هذا الحديث الشريف يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم، وذلك يقتضي أن المطلوب هو احترامهم وتنشيطهم، وهذا الأصل العظيم الذي دل عليه هذا الحديث الشريف يحتاج إليه كل مُربٍّ، سواء أكان مربِّيا للصغار أم للكبار، وللأفراد أم للأمم، إذ التحقير والتقنيط وقطع حبل الرجاء قتلٌ لنفوس الأفراد والجماعات، وذلك ضد التربية، والاحترام والتنشيط وبعث الرجاء إحياء لها، وذلك هو غرض كل مُربٍّ ناصح في تربيته"[2].

[1] انظر: عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 2/167-168.

[2] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 2/168.

**4.** ومما يدل على عناية الشيخ ابن باديس بغرس هذه الآداب ما جاء في وصيته للطلبة المتخرجين بقوله: "اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلُّمه ونشره، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وَلْيَهُن عليكم كل عزيز، وَلْتَهُن عليكم أرواحكم من أجله، أما الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها وإياكم أن تتعرضوا لها بشيء" [1].

**خامسا: تعميم التعليم على الكبار والصغار والذكور والإناث.**

لقد حرص الشيخ ابن باديس على أن يشمل التعليم جميع طبقات المجتمع، صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا حيث قال: "أما التعليم كما يفهمه كل أحد، وكما جاء به الدين، وكما كان عليه سلف المسلمين، فهو نشر العلم لكل أحد، للكبير والصغير والمرأة والرجل، بِحِلَق الدرس ومجالس الوعظ وخطب المنابر وبكل طريق موصل، وهذا ما اشتغلت به الجمعية وتوسلت بالطرق الموصلة إليه" [2].

وأكَّد في مناسبات متعددة على ضرورة تعليم المرأة المسلمة، وإخراجها من جهلها، حتَّى إنه جعل تعليمهن مجانا، أما الذكور فمن كان منهم قادرا على النفقة فإنه يتحملها، ومن ليس كذلك تُغطَّى نفقة تعليمه مما يَرِد على الجمعية من تبرعات المحسنين، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل عنايته الخاصة بتعليم البنات، ومما ورد في كلامه في هذا الخصوص ما يلي: "للجمعية اليوم مكتبها المقام في بناية (الجمعية الخيرية الإسلامية) والتعليم فيه اليوم للبنين، وقد عزمت الجمعية على فتح دروس بعد رمضان- إن شاء الله تعالى- لتعليم البنات، فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة

[1] المرجع نفسه، 232/3.

[2] **جريدة الصراط**، العدد الثاني، 28جمادى الأولى 1352هـ، 18سبتمبر 1933م، ص5.

بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب، فأما البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون، وأما البنات فيتعلمن كلهن مجانا، لتتكون منهن- بإذن الله- المرأة المسلمة المتعلمة"[1].

وما هذا الحرص على تعليم البنات إلا لأنهن سيُصبحن أمهات يلِدن أجيالا تحت رعايتهن، يغذوهم من معارفهن عسى أن يكونوا قادة في بلادهم، يقول الشيخ: "الجزائرية: بدينها ولغتها وقوميتها، فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك، لتلد أولادا منا ولنا، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية، ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون"[2].

وقال في شأن تعليم الصغار: "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصرا على الكبار ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية، فلما يسر الله لي الانتصاب للتعليم عام 1332هـ جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار.

ثم بعد بضع سنوات رأى جماعة من الفضلاء المتصلين بنا تأسيس مكتب يكون أساسا للتعليم الابتدائي العربي فأسسناه"[3].

وقال أيضا: "من ضمن القانون الأساسي للجمعية أن لها أن تؤسس فروعا في البلدان، فهي مستعدة لكل بلدة ترغب أن تكون فرعا منها لإجابة طلبها، كما أنها تدعو جميع المسلمين في كل بلدة إلى مثل تأسيسها لتربية أبناء المسلمين وبناتهم وتعليمهن

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 187/3.

[2] المرجع نفسه 469/3.

[3] المرجع نفسه، 268/3.

وتعليمهم، وأن ينهضوا لذلك نهضة حقيقية ويسعوا له سعي الجد المتواصل فإنهم لا بقاء لهم إلا بالإسلام ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم. والله مع الصادقين"[1] .

وقال في حق النساء في التعلم: "النساء شقائق الرجال في التكليف، فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علمهن- صلى الله عليه وآله وسلم- وأقرهن على طلب التعلم، واعتنى بهن وتفقدهن..."[2] ثم قال: "إن الجهالة التي فيها نساؤنا اليوم هي جهالة عمياء، وأن على أوليائهن المسؤولين عنهن إثما كبيرا فيما هن فيه، وأن أهل العلم والإرث النبوي مسؤولون عن الأمة، رجالها ونسائها، فعليهم أن يقوموا بهذا الواجب العظيم في حقِّ النساء بتعليمهن خلف صفوف الرجال، وفي يوم خاص بهن اقتداء بالمعلم الأعظم عليه وعلى آله الصلاة والسلام"[3] .

واستدل الشيخ بحديث الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: "دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: «أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِهَا الْكِتَابَةَ"[4] ، على جواز تعليم النساء الكتابة، ثم قال: "وأقوى منه في الاستدلال العمومات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجماهير وهو المذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص يخرجهن من

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 270/3.

[2] **مجلة الشهاب**/ الجزء الثاني، المجلد 15، صفر 1358هـ، مارس 1939م، ص65.

[3] المصدر السابق ص66.

[4] رواه أبو داود رقم 3889.

نص أو إجماع أو بضرورة طبيعية، لأن النساء شقائق الرجال في التكليف، ولا خلاف في أنه إذا اجتمع النساء والرجال ورد الخطاب أو الخبر مذكرا على طريقة التغليب"[1] .

ثم دعَّم كلامه بالوقائع التاريخية التي سجَّلت لنا نساء كاتبات عالمات فقال –رحمه الله–: "فاستنادا إلى هذه الأدلة، وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العالمات الكاتبات الكثيرات، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم"[2] .

**سادسا: الاعتناء بدراسة اللغات الأجنبية لتعلم العلوم العصرية**

لقد رغَّب الشيخ ابن باديس في تعلُّم اللغة الفرنسية خصوصا بحكم وجود الاستعمار الفرنسي في الجزائر، واللغات الأجنبية عموما لأنها السبيل الأمثل لتعلُّم العلوم العصرية، وسأورد مجموعة من مقالات الشيخ ابن باديس.

قال الشيخ رحمه الله: "كل قوم تربط بينهم المصالح لا بد لهم من التعاون، ولا يتم التعاون إلا بالتفاهم والتفاهم بالمشافهة والكتابة، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطه، وبقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللغات

[1] **مجلة الشهاب**، الجزء الثالث، المجلد الخامس عشر، ربيع الأول 1358هـ، أبريل 1939م، ص111.
[2] المصدر السابق ص112.

والخطوط ويلزم تعلمها، لأن العلة هي الحاجة، وسواء كانت المصلحة التي تربط الأقوام عمرانية أو علمية لأن المصلحة من حيث هي مصلحة محتاج إلى تحصيلها" [1].

وقد ذكر ابن باديس عُذره في التركيز على اللغة العربية مع التنويه بفوائد دراسة اللغة الفرنسية بقوله: "وإذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعليم العربي، فذلك لأن العربية هي لغة الدِّين الذي هو أساس حياتنا ومنبع سعادتنا، ولأنها هي التي نحسن تعليمها، ولأنها– وهذا من الوجاهة والعدالة بمكان– هي اللغة المهملة بين أبنائها، المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، المحارب القائمون على نشرها من أبنائها، اللهم إلا قليلا نادرا– على خوف– يحتج به عند مقتضى الحال، وإلا المدارس الرسمية الثلاث التي لا تقبل إلا عددا محدودا لتخريج من يملأ الوظائف الرسمية ويناسب روحها.

ولو أنا حُرمنا من حرية تعلم اللغة الفرنسية، التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حُرمنا من حرية تعلم لغتنا، لوقفنا إزاء ذلك الحِرمان لو كان، كوقوفنا إزاء هذا الحرمان.

إن شعبين متباينين ربطت أوضاع الحياة الجارية بينهما، لا أحسن لهما من أن يتفاهما ويتكارما ويتناصفا ويتآلفا، ومفتاح ذلك أن يتعلم كل منهما لغة صاحبه.

هذا ما نقوله نحن الذين نريد الوئام والسلام، أما الذين يحاربون العربية فهم يفرقون ويشوشون فسيندمون، وتنتشر العربية بقوة الحق والفطرة وهم كارهون.

---

[1] **مجلة الشهاب**، الجزء الثاني، المجلد الحادي عشر، صفر 1354هـ، ماي 1935م، ص88.

فإلى المسؤولين الذين يقدرون مسؤوليتهم، وجعلوا المصلحة العامة العليا غايتهم، نوجه نداءنا من أجل حرية الدين ولغة الدين، وفتح طريق التعلم والتقدم للمسلمين وغير المسلمين باللغتين" [1].

ولقد بيَّن رحمه الله في موطن آخر ثمرات تعلُّم اللسان الأجنبي فقال: "العلوم في الجزائر كما أظنها في غيرها، منها علوم تؤخذ باللسان العربي وهي علوم الدِّين واللسان، ومنها علوم تؤخذ باللسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران.

وقد كان الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام ،كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه وضلال، فهؤلاء يعتبرون الآخرين أحجاراً، وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً، هكذا كانت الجزائر في الحركة العلمية إلى أن مرت عليها مائة عام، وأنشئت جمعية العلماء الجزائريين، فتولت إفهام كل طرف قيمة الطرف الآخر، وبيَّنت للجميع أنهم مهما نطقوا بأي لسان، فهُم من الجزائر وإلى الجزائر، ولا تنهض الجزائر إلا بهم ولا ينهضون إلا بها.

ولقد وضعت هذه الجمعية برنامجا صالحا لتعليم الصغار اللسان العربي، وتكميل معلومات من تعلموا باللسان الأجنبي كما خصصت دروسا للكبار" [2].

ووجّه رجاءه إلى الشبّان بتعلم اللغات الأخرى لننتفع بعلومهم، فقال: "فأرجوكم أيها الشبان الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجدتموه وأن تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب كما أخذه الأوروباويون من أجدادنا وطبعوه

---

[1] عمار طالبي، **آثار ابن باديس**، مرجع سابق 257/3.

[2] المرجع نفسه 332/4.

بطابعهم النصراني وانتفعوا به وهم إذا أنكر بعضهم اليوم فضلنا عليهم فذلك شأنهم أما نحن فلا ننكر فضل من أسدى إلينا الخير الخالص ونعترف له بالجميل الذي لا يراد به سوى الجميل"[1] .

كما اقترح على المجلة الزيتونية التونسية أن تضم إلى كُتَّابها مَن يحسن اللغات الغربية، مع بيان الثمرة من هذا العمل فقال: "وبعد فإن اسم الزيتونة اسم إسلامي علمي تاريخي عظيم فيجب أن تكون "المجلة الزيتونية" ممثلة له مجددة لعهده. وأن في تعاون أساتذة الجامع: شبابهم وشيوخهم على النهوض بها ما يحقق ذلك إن شاء الله. وإنني أقترح على إخواني القائمين بها أن يضموا إلى قلم تحريرها رجالا من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة بحركات العصر من وراء البحر فإن العلوم والآداب والفنون تراث الإنسانية كلها لا تستقل فيها أمة عن أمة وأكمل الأمم إزاءها من تحسن كيف تحافظ على حسنها وتستفيد من حسن غيرها"[2] .

**خاتمة:**

من خلال استعراضي لكلام الشيخ ابن باديس في إصلاح التعليم، انقدح في ذهني الخطوات العريضة التي كانت محل اهتمامه في التعليم وهي على النحو التالي:

**1.** إصلاح التعليم الديني، ويكون بالرجوع إلى كتاب الله وتفسيره، والسنة النبوية وشروحها، وأقوال السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من القرون المفضلة.

[1] المرجع نفسه، 340/4.

[2] **مجلة الشهاب**، الجزء العاشر، المجلد الثاني عشر، شوال 1355هـ، جانفي 1937م، ص444.

**2.** تصفية الإسلام مما دخله من انحرافات وعادات خارجة عن تعاليم الإسلام، سواء أكانت في الجانب العقدي، أم الجانب العملي.

**3.** تربية النشء المتعلِّم على الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلامية.

**4.** تعميم التعليم على الكبار والصغار، والذكور والإناث للنهوض بالأمة إلى المستوى المطلوب بين الأمم الأخرى.

**5.** تحسين وتطوير أساليب التعليم بما يتوافق مع متطلبات العصر حتى تظهر الثمرة المرجوة من التعليم.

**6.** الاعتناء باللغة العربية وفنونها التي هي مصدر تعلُّم العلوم الإسلامية.

**7.** ضرورة تعلُّم اللغات الأجنبية التي تفتح على أجيالنا آفاق العلوم العصرية، قصد مواكبة الحضارة في مجال العمران والاقتصاد والفلك والصناعات ونحو ذلك.

هذا آخر ما تيسر لي جمعه من كلام الشيخ ابن باديس –رحمه الله– في إصلاح التعليم الديني خصوصا والترغيب في تحصيله، وما أشار إليه من تعلُّم العلوم العصرية التي ترقى بالبشرية إلى حياة أفضل، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.